الطهو البشري

- ١٠ -

مارية شمعون القبطية

د. سها عبد الحميد أحمد

عقد النبي الهدنة بينه وبين قريش في صلح الحديبية

وعاد إلى المدينة ليرى بانتظاره حاطب بن أبي بلتعة [١] .

عائداً من عند عظيم القبط المقوقس بهدية

رفض الرسول ﷺ الكسوة والمطية

لكنه رأف بحال الجاريتين المرسلتين سيرين ومارية

أبوهما شمعون ...

وأمهما سيدة رومية

والذين ألف مداد أقلامهم العبث بأحداث حياة منقذ البشرية

يدعون أن بياضها القطني وشعرها الغني

وعطاء الجمال الذي كان في ملامحها للغاية سخي

هو الذي جعل النبي يختار من الهدية مارية

هل كانت مارية بارعة جميلة وسيرين القبيحة

أم أنه أراد أن يعلمنا من كل حدث في حياته الحكمة البليغة

لتغدو مارية حجة على من يرى الصواب في القومية

وبرهاناً على أن الإسلام دين العالمية

انُّهمَ حبيب الله ﷺ أنه كان يحب أن يجدد

وشتان شتان بين من يدرك عظمة هذا النبي الإنسان وبه يمجد

وبين من عميت بصيرته عن رؤية الحق وراحت بالتشويه تهدد

وأخطر المشوهين من هدم جدران الإناث القانتات

ولم يرعَ حرمة العوان في بيوتهن المحصَّنة

وراح بضرورة ملحة أو غير ضرورة للنساء يعدد

وعندما يُسأل لم ؟ وعلام ؟ كالببغاء يردد

أنَّه لسنَّة رسول الله يتبع ويقلد

والأولى أن يعيد فهمه للأحكام ولصلاحيته بالاجتهاد يحدد

بعد أن روى له حاطب أنها في طريقها إليه غدت مسلمة
كيف يعيدها إلى المقوقس وقد جهر بالحقيقة
واعترف بما بُلِّغَ في الكتاب من صدق النبوة
لكنه أعلم بقومه وقال القبط لحنيفيَّة هذا الدين بالتأكيد رافضة
أيعيد إليهم نفساً غدت بالتوحيد موقنة ؟
ولا يجمع بين زوجتين لهما نفس الوالدة
ولو أن لنا رقي فكرِ أولِ فقيهٍ مستنبطٍ خديجة
لفهمنا لماذا تحمل الرسول ثقل المسؤولية تلو المسؤولية

أنزل مارية ضيفة معززة ومكرمة
اختار لها خير بيوت المدينة بيت بن النعمان حارثة
كانت مولعة بفهم التاريخ لتستشف من أحداثه العبرة

وتردد سرُّ تقديم هاجر سارة لإبراهيم هدية

وها هي قصتها تنعم بالأحداث المشابهة

وكم نخطىء عندما نردد فيما بيننا بالخفاء تلك شرقية وتلك غربية

هذه دخيلة جديدة وتلك مسلمة أصيلة

كيف نعطي لأنفسنا الصلاحية

ونُقيم المراتب الإنسانية

❦ ❦ ❦

امرأة قبطية تقدم من مَلِك إلى نبي هدية

مملوكة لكنْ في ذاتها الأسيرة نفس أنثوية

وباستجابتها المباشرة لنداء الفطرة السليمة

كرمها الله لتغدو زوجة خير البشرية

وليسري نبأ حملها كاللهيب المذيب في كل أرجاء المدينة

ومراعاة لمهمة طهوها مضى الرسول بها إلى العالية [٢]

لم تقف عند سمو الألقاب وأن يدُون اسمها في الأعلام

كانت غاية مُناها أن تكون لزوجها خادمة

والخادمة لزوجها بعلم وحق هي في الحقيقة السيدة

عُرض على مارية دين الإسلام فاستجابت لمنهجه السليم

لم تكن تريد لأناها إلا أن تكون عبدة طائعة لله القادر العليم

لم تكن تعلم أنها ستنجب من أكمل الخلق ولدها إبراهيم

ولا أنها ستزداد تشريفاً وتنزل ضيفة مكرمة في سورة التحريم

وكل زوجة تهب نفسها لله سيكون سبحانه في كل أحداث حياتها بها الرحيم

إنها حرمة الرجل وأمانة الجهاد في طاعته

والحفاظ على مرضاته وتقدير معاناته وعطائه

والتفاني بهبته كل ما له من الحقوق واستشعار رقابة الله بعصمته

كيف لا .. وهم أرباب البيوت وهم لكل فرد من أفرادها خدم

والأولى لنا كنساء أن نرفع عطاء كل سيد منهم في مملكته كالعلم

إنهم الطريق الممهد للجنة

ووقود الطهو للإنسانية

والجنود المجهولون في خدمة الأمومة

والدم الذي يغذي صلابة البُنوَّة

ولترسيخ العقيدة أنبل وأعظم قوة

❦ ❦ ❦

وفي شهر ذي الحجة في السنة الثامنة للهجرة

دخلت على الأب النبي بالبشر أم رافع القابلة

لتحمل له الوليد عزاءً له بعد أن فقد أولاده زينب والقاسم ورقية

حمل الغلام بين ذراعيه وسماه إبراهيم فرحاً ممتناً به كعطية

وما أن بلغ الغلام العامين وهو في حجر أبيه سُمعت منه الحشرجة

حشرجة احتضار اختلط ببكاء سيرين ومارية

ليموت بإرادة ربِّ السماء ولينحني النبي على جثمانه ويقبله بسخاء

وتلك هي أصعب قبلة على الأحياء

لا يمكن أن تنساها الشفاه مهما طال بها البقاء .

ويمضي إلى البقيع ليضجعه في قبره ويسوي عليه التراب ويندیه بالماء

وليطوي جروحه خشية وإيماناً وتعظيماً لصاحب القدر والقضاء

عانت الأم المفجوعة بثقل ومذاق هذا الوداع وهي في العزلة والبكاء

فارقت وليدها وودعت زوجها بعد عام

لتغدو طائراً بتر جناحاه محمد وإبراهيم

سخر الله لها أبا بكر لتبقى في رعاية أروع الخلفاء

إلى أن أتحفها الله باللحاق بمن هم للغاية على قلبها أعزاء .

ليصلي عليها عمر ويشيعها إلى البقيع ويستودعها عند رب السماء .

وبقيت لنا قصتها مثالاً رائعاً للتفاني وبسخاء
لم تبالِ بما يهوى الناس من الألقاب وحب الارتقاء
رضا زوجها كان بالنسبة إليها أروع ثناء ..
تلك هي سمة من أدركت المعنى الحقيقي للعطاء

الحواشي

(١) رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط
(٢) مكان متطرف في ضواحي المدينة المنورة

٨